المقنبين بالديار المصرية وتسابق الناس فى الزينة ونصبوا القلاع فى شوارع القاهرة « وتحسن سمر الخشب والقصب وآلات النجارة وتنادى الناس أن من استعمل سانعاً فى غير الزينة فهو عدو السلطان . وأقبل أهل الريف إلى القاهرة للفرجة ، وملئت الأحواض فى الشوارع بالسكر والليمون وبلغ كراء البيت الذى يمر عليه السلطان من خمسين درهماً إلى مائة ، وفرشت أرض الشوارع التى سيمر فيها السلطان بالأبسطة ، وكان السلطان كلما مر بزينة وقف يعاينها ليجبر خاطر فاعلها » وسار أسرى أمراء التتار بين يديه مقيدين ، وقد علق فى عنق كل واحد منهم رأس أمير من القتلى وأمامهم ألف فارس مصرى مشرعين رماحهم فى كل رمح منها رأس تترى ، وخلفهم ١٦٠٠ أسير من جنود التتار ، فى عنق كل واحد منهم رأس ، وطبولهم ممزقة ، وأعلامهم منكسة ، وكثرت التهانى فى البيوت والشوارع وزاد الهرج والمرج وأهازيج الفرح والسرور « حتى كان الواحد لايسمع كلام من هو بجانبه إلا بعد جهد » .

النصر للإسلام :

ذوى عود قازان ، وتصوحت زهرته ، وتنكرت بشاشته ، وغاضت نضارته ، واستولى عليه الهم والغم ، وألح عليه المرض بسبب الهزيمة ، فلم يلبث إلا أياما حتى مات مهموما ، وجلس بعده على عرش التتار أخوه « خربندا » بن أرغون بن أيغابن هولاكو خان واجتمع به أعيان ملكه ، وتشاوروا فيما يؤمنهم على ملكهم ويهدىء مخاوفهم ، ويحقن عليهم دماءهم ؛ فلم يجدوا أحسن من الدخول فى الإسلام أفواجاً ، وأن يعلنوا المصريين بذلك ، إذ لم يبق حامياً لديار الإسلام سواهم ، فتم لهم ما أرادوا وتلقب ملكهم « غياث الدين محمدا » وكتب إلى سلطان مصر بذلك ، وطلب الصلح وإخماد الفتنة ، وانحسرت موجة التتار عن مصر والشام ، وانكسر عودهم على عزة الإسلام ، وامتصتهم الديانة المحمدية دون أن ينالوا منها ، وتطعمت دوحة الاسلام بشعب جديد فتى قوى كان له بعد ذلك اليد الطولى فى نصرة الدين .

« وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً » .

عطيه الشيخ

مفتش المعارف بالمنيا

مسابقة الفلسفة للطلاب السنة التوجيهية (٥) :

(٢) مناهج الادلة لابن رشد

للأستاذ كمال دسوقى

مازلنا هنا فى ابن رشد لم نفارق أرسطو ، فابن رشد صورة من أرسطو ، أو قل : هو الصورة الاسلامية لأرسطو . وكم ذا لأرسطا ليس فى فلسفات العصر الوسيط من صورا فان الفيلسوف الذى أتينا على دراسة فصل من علم واحد من مذهبه فى مقالاتنا السابقة قد كان ماردا جباراً جثم بسطوته وسلطانه على الفكر الانسانى حتى مطلع عصر النهضة الأوربية الحديثة : عكف الشراح على مذهبه يدرسونه ويفسرونه ويصنفون كتبه ، وأقبل عليه رجال الدين والمفكرون من مسيحيين ومسلمين ويهود يؤيدون به عقائدهم ، فنشأت الفلسفات المسيحية الاسلامية واليهودية على الترتيب . وبقدر ما كان أرسطو يبدو لرجال هذه الأديان لأول وهلة ماديا وملحداً تحرم دراسة فلسفته ، لايلبث هؤلاء الجامدون المتزمتون أن ينبذوا الجبال الأفلاطونى إلى مافى مذهب أرسطو من منطق وانسجام وتوافق ، فيحل أرسطو من التفكير إذن أرفع محل .

وهكذا ترى أن أفلاطون وأرسطو كانا قطبى التفكير فى كل فلسفة دينية ؛ وأن مثالية هذا وروحيته ، ثم واقعية ذاك وماديته ، كانت بمثابة قرنى الإحراج لايذهب المفكرون إلى أحدهما إلا ليرتدوا إلى الآخر . ولن تجد بين مفكرى العصور الوسطى وفلاسفة الأديان إلا من هو أفلاطونى أو أرسطى أو موفق بين الاثنين ويتفاوت فهم رجال العصور الوسطى لفلسفة كلا الرجلين ومدى نفوذهم الى حقيقتها . وكثيراً ماأدخل الاسلاميون عناصر غريبة على فلسفة أحدهما أو الآخر ، أو أساءوا له ونسبوا إليه ظلم يقل به ولكن ابن رشد يمتاز من بين الاسلاميين جميعاً بأنه خير من فهم أرسطو وشرحه ونقله إلى الغرب حتى ليسمونه الشارح الأعظم magnus commentator لأنه هو الذى لعب أخطر دور فى ربط الثقافة الانسانية وإكمال دائرة الفكر البشرى برد التراث اليونانى إلى أوربا الوسطى .

قبيل نهضتها ؛ فان شروحه لكتب أرسطو قد نقلت إلى اللاتينية وهي حينئذ لغة العلم والجامعات . وتولى نشرها ودراستها وإذاعتها خصوصاً فلاسفة اليهود .

وتعلمون أن الفلسفة إذ نشأت في بلاد اليونان بمعناها الحقيق ، وما كانت تشتمل عليه بلاد اليونان إذ ذاك من أوضاع جغرافية واسعة تشمل هذا الجانب من البحر المتوسط كله تقريباً قد ورثها الشرق المسيحي بعد إذ استقرت الديانة المسيحية، فالشرق الاسلامي بعد إذ اتسعت رقعة الحضارة الاسلامية . وتعلمون كذلك أن رقي الفلسفة في كل من الشرقين إنما كان صدى للتوسع الجغرافي والرقي الحضاري ، وما يتبع ذلك من تشجيع للعلم والثقافة وحث على ترجمة التراث اليوناني بما اشتمل عليه من حكمة وطب وفن وفلسفة ، فكانت الفلسفة تخصب وتزهر حيث توجد البيئة الصالحة للنمو والازدهار ، وحيث يكون التشجيع والمثوبة من جانب ذوي السلطان ، فاذا أصاب هؤلاء تقهم التفكير وضيق الأفق وحمل سخطهم على الفلسفة وايذاؤهم للفلاسفة ، كان على الفلسفة إذن أن تهاجر وتنزح . وكما أن الدولة الأموية العربية حين غلبها العباسيون وشتتوا أصحابها قد هاجرت إلى الأندلس ، كذلك كانت هجرة روحية أخرى للفلسفة الاسلامية أثر اضطهادها وتكفير أصحابها في الشرق العربي، وعلى أنقاض حضارة المشرق الثقافية إذن قامت حضارة أدبية وسياسية وفلسفية في المغرب ، وبمعنى أدق في الأندلس ، هي ، مهما يكن من أمرها صورة مصغرة من حضارة الشرق ، ولكنها متشابهة من ناحية وبسمات وخصائص مميزة من ناحية أخرى

كانت متشابهة من حيث أنها قد اعتمدت في أساسها على ما كان ينقل أهل تلك البلاد من علوم الشرق سواء بالرحلة إليه والتعلم على أشهر علمائه وبجمع تراثه ونقله ونسخه ثم الشروع في التفلسف بعد مرحلة التمهيد والدرس هذه . وآية ذلك تدرج فلاسفة الغرب في تقديرهم لأرسطو متأخرين كما يمثلهم ابن باجة فابن طفيل فابن رشد ، كتدرج فلاسفة الشرق الكندي والفارابي وابن سينا ، إلا أنه يجب أن نقول إن ابن رشد كان أكثر فلاسفة المشرق والمغرب معرفة بأرسطو وفهماً وتقديراً له ، وذلك لأن البيئة الأندلسية قد خلت من خلافات الشرق وجدله وعقمه كما يظهر في أشعاره وموشحاته ذاتها في ميزان الأدب ، فجاءت فلسفة ابن رشد أرسطاطالية خالصة من ناحية ، ودينية عقلية من ناحية أخرى ، وذلك هو الجانب المزدوج الذي يجب أن تنظروا لابن رشد من خلاله ، فهو من ناحية ينشر ويلخص ويشرح الكثير من كتب أرسطو والفلاسفة المشائين من أتباعه وغيرهم من الاطباء والمتكلمين . . . الخ كما تجدون في ثبت كتبه التي ورد ذكرها بمقدمة كتابه الذي تدرسونه ، ومن ناحية أخرى، يكتب في علم التوحيد والعقائد ؛ أو ما يسميه فلاسفة المسلمين علم الكلام ، رسائل وكتباً كهذا الكتاب الذي تدرسونه .

على أن التقدير الذي يحظى به ابن رشد لدى مؤرخي الفلسفة الغربيين ربما كان أكثر منه عند مؤرخينا . فهم ينظرون إليه كما قلت بوصفه همزة الوصل ونقطة التحول التي عن طريقها تم انتقال الفلسفة إلى أوربا ثانية على يد فلاسفة المسلمين . واليهود ولعله بهذا وحده يمكن أن يكون للفلسفة الاسلامية مكانها بوصفها حلقة ضرورية في تاريخ الفلسفة المتصل ، وللعرب شأنهم بوصفهم حملة هذه المشاعل ونقله هذا التراث ، والأمناء على نتاج هذا الفكر الانساني أخذوه عن مصادره الأولى وتعهدوه بالتخير والانتاج حتى أوصلوه إلى أهله كاملا غير منقوص ، وحسب الفلسفة من فلسفات العصر الوسيط أن تقوم بهذا الدور ، فان بعضها لم يبلغه — لكي تعد ذات رسالة ، والفضل هنا إذن لابن رشد .

لقد كتب اثنان من كبار الفلاسفة الفرنسيين المستشرقين كتابين هامين كبيرين في ابن رشد (وهم يسمونه averroms ويجعلون له مذهباً يسمونه averroms أحدهما ليون جوتليه — والآخر إرنست رينـــان تناوله موتك في كتابه عن افلاسفة اليهود والعرب ، والبارون كارادي فو في كتابه مفكرو الاسلام وإن لم يفرد له كتاباً خاصاً فيما بعد كما فعل بالغزالي وابن سينا ، وكذلك الفيلسوف الهولندي دي بورق تاريخـــه لفلسفة الاسلام - وفي هذه المراجع وكتابات كثيرين من المستشرقين الالمان خصوصاً ودوائر المعارف الاسلامية وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان وغيرها نلمس التقدير الكبير الذي يتمتع به ابن رشد عند هؤلاء المؤرخين والمنصفين مبلغهم من العلم به وبفلسفته ضئيل

ومن هذه المؤلفات ماهو مترجم إلى العربية نستطيع أن نرجع إليه كـكتاب العلامة دى بور المشار اليه ، ترجمة الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة مدرس الفلسفة الاسلامية فى كلية الآداب ترجمة علمية دقيقة مزودة بالتعليقات والمراجع كذلك تجدون مادة ابن رشد فى إحدى مجلدات دائرة المعارف الاسلامية التى ظهرت ترجمتها العربية فعلا للاستاذ عبد الحميد يونس وزملائه الثلاثة .

أما المؤلفات العربية فى ابن رشد فأهمها : كتاب فى مجموعة أعلام الإسلام (العدد ١١ فبراير ١٩٤٥) التى تنشرها لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية السابقة الذكر عند عيسى الحلبى — هذا الـكتاب هو : أبن رشد الفيلسوف للاستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية أصول الدين بالأزهر ، وهو على سهولته وتبسيطه كتاب واف بحياة الفيلسوف وعصره ومذهبه ، ولا بد أن ترجعوا إليه وتعولوا على ماجاء فيه من دراسة عى مزيج مهضوم فى عقل صاحبه من مختلف الآراء العربية والغربية لابن رشد ومذهبه . ففيه مادة صالحة طيبة . ارجعوا كذلك إلى كتاب قديم للاستاذ فرح أنطون عن ، ابن رشد ومذهبه . ففيه مادة صالحة طيبة وافية بالغرض ، وكذلك باب ابن رشد من كتاب فلاسفة الاسلام للاستاذ محمد لطفى جمعه الحامى .

سوف يعفيكم الـكتاب المطلوب إليـكم دراسته من تعرف ابن رشد فى دوره الأهم الذى أتحدث عنه حتى الآن ؛ وكما يفهمه المؤرخون الأوربيون ، لأنه يعالج فلسفة إسلامية خالصة موضوعها التوحيد أو علم الـكلام ، وهو ما كان ابن رشد يصطنعه للرد على الغزالى وأضرابه ممن كفروا فلاسفة المشرق كابن سينا فى قولهم بأن الله يعلم الـكليـات دون الجزئيات وغير ذلك من المسائل الدينية التى كانت محل خلاف . ومن هذه الردود ماجعله ابن رشد مباشرا يتناول فيه قول الخصم ثم يتولى إدحاضه ككتاب تهافت التهافت الذى رد فيه على « تهافت الفلاسفة » للغزالى ، ومنهـا ماهو غير مباشر تظهر فيه براعة ابن رشد فى عرض عقائد الملة وأمور الدين عرضاً لاتتنافى فيه الفلسفة والدين كهذا الـكتاب .

وفى عنوانات هذه الـكتب ذاتها دليل على مانريد أن نبين من طبيعتها . ففى المجموعة التى بين أيديكم كتابان : فصل المقال فيما بين الحـكمة والشريعة من الاتصال — وهو كتاب قيم له أهميته ودلالته من حيث مايعرض له — وهو كفيل بأن يرد إلى الصواب أولئك الذين يخشون تعارض الفلسفة والدين . إذ هو يقنعهم أن لاتعارض ، بل محبة وتقارب . ولا يخرج القارىء منه إلا وقد آمن أن الفلسفة فرض واجب كبقية الفروض . فرض عين لا فرض كفاية . والـكتاب الثانى فى « الـكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » . وفيه يعرض الفيلسوف وقد بين من أمر توافق الفلسفة والدين فى الـكتاب السابق مابين — يعرض لمناقشة مختلف المنـاهج التى بها تقوم الأدلة méthodes الصحيحة على كثير من عقائدنا الدينيـة الإسلامية كوجود الله وتوحيده وبقية صفاته الثبوتية والسلبية : تلك التى تنسب له صفات إيجابية كالعلم والقدرة والسمع والبصر والـكلام ، والتى تنفى عنه صفات سلبية كالجهل والعجز والصمم والعمى والبكم ... ثم مشكلة ارسال الرسل أو النبوة والتدليل على معقوليتها ؛ وأخيراً مشكلة العالم الآخر التى تقول بها الأديان .

وقبل أن نشرع منذ المقال التالى فى تحليل هذا الـكتاب لابن رشد ، أريدك أن تلم بتاريخ حياته إلماما كافيا ، تعرف منه تاريخ مولده ووفاته والقرن الذى عاش فيه من التاريخين الهجرى والميلادى ، ثم مكانة قرطبة التى ولد فيها وتفلسف وما تقلبت فيه من عزوذل والتاريخ العام لدولة الأندلس وما تعاقب عليها من الحـكام — منذ فتحها عبد الرحمن الداخل الأموى (٣٨ هـ) — من أمـويين فرابطين فموحدين — وخصائص كل عصر من حيث الاهتمام بالعلم وتشجيع الأدب والفلسفة — وأخيرا حيـاة الفيلسوف ونشأته ودراسته ومصنفاته والجانب المزدوج فى مهمته الفلسفية الذى عرض فيه للحكمة الأرسطية والشريعة الاسلامية فأحسن التوفيق بينهما ،

وإلى الملتقى فى حديثنا التالى .

كمال دسوقى